أزمة الانتقام في رواية تراب الماس
لأحمد مراد
دراسة تحليلية

م.د. بيسان خالد علي مصطفى
كلية التربية للبنات – قسم علوم القران
الجامعة العراقية

المقدمة

تعد رواية تراب الماس لكاتبها الشاب (أحمد مراد) من الروايات الأكثر مبيعاً في مصر بعد صدور طبعتها الأولى عام ٢٠١٠ م .

تصاعد بريق (تراب الماس) حينما قامت السينما المصرية عام ٢٠١٨؛ بتحويلها فلما سينمائياً من الطراز الرفيع إنتاجا، وإخراجا، واداءً، بشهادة نقاد مصر والعالم العربي، صعد بالفلم فاحتل المرتبة الأولى في صالات العرض، وحصد الأعلى مشاهدة على مواقع التواصل الاجتماعي؛ مما ضاعف شهرة الرواية وصاحبها . الرواية تناولها عدد كبير من نقاد الرواية، والفن بالتحليل، وقدمت في رسالة ماجستير بقسم اللغة العربية / كلية الآداب / جامعة محمد بوضياف – في الجزائر، من قبل الطالبتين(سارة فيسح، وفيروز بطة) تحت عنوان(البنية السردية في رواية تراب الماس لأحمد مراد)، المنشورة على الانترنيت .

هدف البحث: يصب في تحليل أسباب الأزمة التي يعاني منها (الأب حسين الزهار)، وكيف تبقى ثابتة، تتجدد مع قراره باختيار مقتول، وكيف ألقت بظلالها علي الابن (طه) لتفرض عليه الدخول لا إراديا بسلسلة أزمات متتالية، وقسمت الدراسة إلى: –

- التوطئة: وعنوانها (الدخول إلى عالم تراب الماس) تناول تحليلاً لثريا نص الرواية، ونوعها .
- المبحث الأول: وعنوانه (أزمة الأب حسين الزهار) وفيه تحليل لازمته الحقيقة، والصفات التي يملكها والتي مكنته من قيادة التخطيط الدقيق والمدور للقتل . وقابليته للتحكم الذاتي .
- المبحث الثاني: وعنوانه (انتقال الأزمة إلى الابن طه) فيه كيف تنتقل الأزمة إلى الابن، وانفلات الأمور من بين يديه، ودخوله في عالم الضياع والهلوسة ثم الخروج منها .

بعدها خاتمة بأهم النتائج، وقائمة بالمصادر والمراجع التي أعانت البحث والباحث.

abstract

The novel in its first edition release is one of the best-selling of crime -fiction novels in Egypt. In this study, the main character's crisis(Father Hussein al-Zahar) was selected, which then thrown its shadows on the son (Taha) to force him the involuntary entry into a series of consecutive crises, the study was divided into :-

- preliminary entitled (access to the world of Dust of Diamonds)comprises an analysis of the novel text, and its type.
- The first sub-chapter entitled (Father Hussein Zahar's crisis)contains the analysis of his true crisis and his qualities which enabled him to detail plan to murder and his self-control.
- The second sub-chapter entitled (transmission of the crisis to son Taha)depicts how this crisis moved to the Son, and how things evaluated from his hands and enter into the world of loss and humiliation and then reach out.
- Then conclusion with the most important results, and a list of sources and references that research and researchers

توطئة

الدخول إلى عالم تراب الماس

تعد رواية (تراب الماس) من الروايات الضخمة والمتشعبة، فهي متداخلة الأحداث، والحوار حاضر فيها بقوة باللهجة المصرية المحلية، يتلون مع ما يناسب كل شخصية، وزمنها، وبيئتها، إلى جانب السرد بالفصحى، مروية بصيغة الراوي العليم الذي تداخلت معه أصوات رواة عدّة على لسان الشخصيات، لم يلتزم السارد بالتتابع المنطقي الزمني، فأدى إلى مفارقة بين زمن الحكاية، وزمن السرد، فمنحه حرية الحركة في بناء المفارقات الزمنية السردية، ويتم تحديد المفارقة الزمنية من لحظة انقطاع زمن السرد عند نقطة حاضرة، وينحرف باتجاه الماضي أو المستقبل[1]، فتكون الاسترجاعات والاستباقات عنصراً للتشويق .

تصنف الرواية بأنها من النوع البوليسي، ويمكن معرفة ذلك قبل قراءتها من خلال ثلاثة مفاتيح: –

المفتاح الأول في عتبة النص : العنوان الرئيسي الجاذب (تراب الماس) الحامل لمعنيين متعاكسيين في القيمة (التراب) الرخيص المتوفر ويملئ الأرض، و(الماس) الذي كان عبر العصور مادة الرفاهية والترف النادرة، لكن سرعان ما ينصرف الذهن إلى العنوان الفرعي للرواية(حينما يكون القتل أثراً جانبياً) فيثير سؤال: كيف يكون ذلك ؟ ثم فهم عام إلى ان الرواية تتحدث عن جريمة، أو جرائم عدة، بالتأكيد تحمل في طياتها تبريراً من نوع ما لكل منها، فتمارس سلطة إغواء واستدراج للدخول لعالمها .

المفتاح الثاني في غلاف الكتاب : التمعن في التصميم البصري للغلاف الأمامي الذي يُظهر جانباً ضيقاً من غرفة للنوم، سيطر فيه المكان على الزمن؛ وعلى الرغم من أن الزمن هو وضح النهار الذي يتبدى من خلال الضوء الساطع خلف الشباك؛ إلا ان الظلمة غلبت على ما ظهر من شكل الغرفة: عتيقة، مهجورة، تملؤها الأتربة، يظهر منها حافة لسرير قديم عليه خرق ممزقة؛ وشقوق في الجدران؛ يتوج مظهرها المهجور (الغراب الواقف على حافة الشباك – رمزاً للبين)، فتقف الصورة بألوانها الكئيبة مع العنوان لتتصاعد أسئلة القارئ: من كان يعيش هنا ؟ وأين ذهب، وهل هذا مكان القاتل أو المقتول؟ أما غلاف الكتاب الأخير فقد كُتب في أعلاه سطرين: « للمرة الثانية بعد (فيرتيجو) يتخذ احمد مراد من الجريمة خلفية تكشف بأسلوب مشوق كواليس المجتمع ...».

أما المفتاح الثالث كان في افتتاحية الرواية: عند فتح الصفحة الأولى تتصدر الكتاب عبارة مقتبسة من كتاب (الجمعيات السرية) تشير إلى الجريمة بكلمة (الشر) تقول: « أظلم الأوقات في تاريخ الأمم هي الأوقات التي يؤمن فيها الإنسان بأن الشر هو الطريق الوحيد للخير» [2].

(١) ينظر: الزمن في الرواية العربية: مها حسن القصراوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الأردن، ط١، ٢٠٠٤، ص ١٩٠ .

(٢) تراب الماس: احمد مراد، دار الشروق، القاهرة، ط٢،

سلسلة الجرائم في الرواية قادتها في الرواية شخصيات عدة، كل منها كان يعاني من أزمة قديمة مترسخة، أو جديدة مستحدثة، منها كان إراديا وممتعاً في شخصية الأب (حسين الزهار)، ومنها ما كان إراديا تحول إلى إجباريا متمثلة (بالابن طه حسين الزهار) بسبب من قوة مسلطة عليه من الضابط الفاسد(وليد سلطان)، أما الضابط كان يرتكب جرائم يستخدم فيها غيره لتنفيذها، ليتخلص بدوره ممن كانوا يهددونه بكشف فساده؛ فرسمت حلقة تقع داخلها عمليات قتل أوجدتها أزماتهم .

المبحث الأول

- أزمة الأب حسين الزهار

يتنامى الحدث مع الشاب الصيدلاني (طه) الذي يعيش حياة روتينية مع والده مدرس التاريخ المتقاعد، المعزول، القعيد (حسين الزهار) المنفصل عن أمهِ مذ كان عمره ١٧ سنة، يعود (طه) يوماً إلى شقته فيرى أباه مقتولا، يبحث عن سبب القتل . ويجد دفتر مذكراته؛ ويكتشف إن أباه كان قاتلاً [١] . يعترف الأب فيه اعترافاً تفصيلياً وصريحاً كيف تعلم القتل صبياً بمادة تراب الماس [٢]، عندما رأى (العم لييتو) اليهودي يضع ذرات من هذه المادة في طعام قط ابنته المزعج؛ معللا السبب بـقوله « ساعات بنعمل غلطات صغيرة علشان نصلح غلطات اكبر»[٣] ليموت بعدها بمدة .

هذه الحادثة سقت جذور حسين الزهار الناعمة باكتشافه طريقة للقتل الصامت، ولم يفكر فيها طويلا في الظاهر، ولكن في الباطن تسلل إلى وعيه سراً من أسرار الموت من خلال مشاهدة القتل الهادئ؛ له تبريره، وإيقاعه البطئ، وطريقة إعطائه السهل؛ بتناول شهي مع الطعام، فغرست في قلبه وعقله قناعة وقدرة على تقليد ما رآه . من دون أن يعلم انه سينصب نفسه خلال أيام حاكما وجلاداً .

يذكر حسين الزهار في مذكراته انه في غارة من طائرات الصهاينة والانكليز ليلا خلال العدوان الثلاثي ١٩٥٦، صعد (العم لييتو) إلى السطح وتسلل خلفه « كان بيعمل حاجة غريبة مسلط الكشاف اللي في ايدو على السما وعمال يشاور بالنور... ما فهمتش ولما شافني كانوا شاف عفريت»[٤] وقال له «ما ينفعش تتكلم عن الموضوع دة مع حد يا حسين»[٥] .

فك حسين الزهار الصبي شفرة ما رآه لاحقا ،عندما وصل إلى الحارة أربع عساكر وضابط لاعتقال

٢٠١٢، أول ورقة

(١) ينظر: تراب الماس: الصفحات ١٠٣، ١٥٤

(٢) ينظر: نفسه: ١٤٩، مادة تراب الماس حسب ما جاء في الرواية ان طه يبحث عن معلوماتها في الانترنيت (ويجد تاريخ المادة) وماذا تفعل بمن يتجرع كمية قليلة جدا منها فتبدا بتكوين شظايا لحمية في المريء ... تتعمق فيحدث نزيف حاد بطئ يصعب ملاحظته في البداية ... بعدها الم لا يمكن تحمله ويموت فيها خلال ثلاثة أشهر، ويعد من اخطر السموم لان لا طعم ولا رائحة له، ينظر الصفحات ١٧٣ – ١٧٤.

(٣) نفسه : ١٥٠

(٤) تراب الماس: ١٥٢

(٥) نفسه: ١٥٢

المدرس اليهودي (بيساح) لانه يساعد الصهاينة بعمل كشاف ضوئي من السطح تلافيا لضرب حارة اليهود، فيردد عبارة « الخواجة بيساح خائن ... عمي ليبتو كمان»[١] .

من هذه اللحظة بدء بالانفصال السريع عن فطرية الطفولة الكونية التي يتشاركها البشر، لتعلن بدء نهاية البراءة مبكراً؛ والدخول في مصنع انتقام الكبار. فاتخذ (حسين) من عبارة أبيه الميت سببا لتنفيذ الحكم مكررا (أبويا قال) ليؤكد لنفسه صحة ما سيقدم عليه « أبويا قال كل حاجة غلط لازم ندفع ثمنها حتى لو تأسف، أبويا قال ما تبعش بلدك حتى لو كان عشان مرة بتحبها « [٢]؛ فتحكمت به الأنا الأعلى كأثرٍ بقى في نفسه، اعتمد فيها وخضع لأوامر الاب ونواهيه، وتقمص شخصيته [٣]، فمارس تجربته الأولى في القتل، على من تعلم القتل منه . ليثأر من اجل مصر، متخذا من العساكر والضباط، الذين اعتقلوا (بيساح الخائن) قناعا له «ليتحول الى شخصية غرائبية»[٤]، بحكم إعدام صادر من محكمة أبيه، أضاف لها تبرير العم ليبتو عندما قتل القطة؛ فقام بوضع ذرات من تراب الماس له في الشاي؛ جرفته عواطف غريزية نحو تلبيه رغبة الأب الميت، وحماسية أجواء الحرب، ومواجهة الأعداء، وخطابات الرئيس عبد الناصر، غذت بها مشاعره فقرر الانتقام لمصر بأعلى مستوى وهو (القتل). مارس بعدها طقساً – أصبح ثابتا لكل من يقتلهم لاحقا- كنوع من التمتع بممارسة الإحساس بالبطولة؛ حين قال للعم ليبتو بعد شربه الشاي، وأوحي له بأنه قتله، بلمسة روحانية بعث له عبرها إشارات الرحيل الأبدي: «أنا حلمت لك حلم انك رايح مشوار بعيد ..مع أبويا الله يرحمه.. خدك من أيدك ومشاك معاه»، ثم أردف معه في حوار يبرز امتلاك حسين الزهار لمكر ودهاء غريزي، حين سأله ليبتو هو أنا مش زي أبوك .... لا .. أغلى يا عمي» [٥].

بعد أشهر ساءت حالة ليبتو وبدأ ينزف دماً وحار الأطباء فيه، ففهم ما فعله به حسين الزهار، وقرر الرحيل من مصر لفرنسا؛ هرباً من الفضيحة بمشهد رحيل مشحون بلغة العيون، ومات هناك .

يكبر حسين الزهار، كشخصية مريضة مأزومة (بالانتقام) لانه يرى بان القتل الأول لم يحقق العدالة المنشودة .. عملا ناقصاً يحتاج إتمام[٦]، فيلجا الى التنمية الذاتية في التدرب عليه مع نفسه «قتلت في مخيلتي الف شخص»[٧]، ثم يعدد من قتلهم في الواقع مبيناً السبب (سليمان اللورد) تاجر المخدرات، (محروس برجاس) نجم الأغذية الفاسدة، مبررا ذلك بعبارة ختم بها مذكراته «القتل يكون أثراً جانبياً لدواء يشفي

(١) نفسه: ١٥٢
(٢) نفسه: ١٥٤
(٣) ينظر: الأنا والهو: سيغموند فرويد، ترجمة: محمد عثماني نجاتي، دار الشروق، بيروت: ١٩٨٢، ص ١٧
(٤) وراء السراب – قليلا : إبراهيم درغوثى، دار الإتحاف للنشر، تونس ٢٠٠٢، ص ٧٤ .
(٥) تراب الماس: الصفحات : ١٥٤-١٥٥
(٦) ينظر: نفسه، ١٥٩
(٧) نفسه

بلد يحتضر»[١].

مرضيته ينظر منها إلى القتل كحالة هامشية لأجل هدف أكبر هو تحقيق العدل لينطلق من مرحلة الانتقام البطولية للوطن، إلى مرحلة تنظيف الوطن . خلال حياته الصعبة كما وردت متفرقة: خدم في الجندية، أصيب برصاصة، خسر أمواله في شركة الريان، ثم أصبح مشلولا ؛ فترابط قضية أزمته الحقيقة بأنه يقتل من كان لهم يد بشكل مباشر أو غير مباشرة لما هو فيه، فيعالج مرضه المأزوم انتقاما منهم بحجة تنظيف البلد من الفاسدين، وبما إن مرضية الانتقام بالقتل تحتاج إلى متطلبات لا تحتمل الخطأ؛ كان على مدى ظهوره في الخط السردي التتابعي الأول والمسترجع .

يُخضع نفسه لثلاث سلطات [٢] لا يكسرها أبداً، كمستلزمات دقيقة للتنفيذ ؛ وتحديد الوقت المناسب للتخلص منها : –

١ – السلطة المكانية :

يتخذها كقاعدة؛ لأنه يقود عملية التخطيط منها، يلجأ إلى الانطواء في غرفة معينة داخل البيت، ويلتزم بنمط معيشي غريب، يرفض تغييره لأي سبب، يجلس على كرسيه المتحرك أمام شباك الغرفة، تساعده حالتهُ كرجل معاق، وقعيد، يسترق النظر الى الشارع يَرى ولا يُرى، ويسجل ما يراه في دفتر «اعتاد على مراقبة حياة الآخرين حفظ عاداتهم وتقاليدهم يتابع كل صغيرة وكبيرة «وعجز طه عن محاوله إخراجه من تلك الحالة»[٣]. لكن يستمر بالإيحاء بأن لا شأن له بالعالم الخارجي .

٢ – السلطة الزمانية :

لديه فيها مواقيت محددة للتنفيذ مدروسة بدقة، لا يغادر المنزل، ويبقى قابعا في الظلام، ولا يفتح الستارة لأي سبب؛ لأنه يبحث عن فريسة جديدة يمارس عليها عمله البطولي؛ لذا يبقى قابعا في الظل كالخفاش» يفضل الغرف المظلمة في الليل والنهار، يرفض حتى تهويتها وهو فيها، يخرج الى غرفة أخرى إذا طلب طه تنظيفها ثم يعود بعد غلق الستار ولا يفتح شباكها إلا بعد زوال الشمس»[٤]. متعته الوحيدة استراق النظر من نافذة غرفته لساعات . ويحمل بيده طوال الوقت ناظور للمراقبة، ينام النهار، ويصحو في الليل، ولا يغادر المنزل الا للضرورة .

٣ – السلطة الروحية:

تأخذ المستوى الثالث والاهم عنده؛ لأنها كالوقود الذي يشحن بها نفسه، ليكون قادرا علي ضبط التحكم الزمكاني الخاص به، يقرا الجرائد والكتب بنهم يبحث فيها عن شخصيات سوداوية حصراً، يتدرب على قتلها في خياله، فيلبس ثوب البطولة متباهيا بذاته المحترفة، والمحنكة، والمثقفة إدراكا منه أن له الموهبة التي تستعصي على الفهم والتحليل . يصمت طويلا، وعندما يريد أن يعبر عن سخطه ويتخلص من ضغط

(١) نفسه : ١٦١

(٢) ينظر: ديستوفسكي وجريمة قتل الاب: سيكموند فرويد، كتابات فرويد المجمعة، نيويورك، ٢١/ ٥ .

(٣) تراب الماس، ٥٣

(٤) نفسه، ١٠٢

الكتمان، يبدأ بالحديث مستعيناً بعبارات، وجمل لمشاهير الفلاسفة، بطريقة مسرحية، استعراضية مملة ومنفرة .

لذا حسب دراسات علم النفس وبالإضافة لما مر فان كثير من صفات هذه الشخصية المأزومة تأخذ ما يسمى (باضطراب ما بعد الصدمة النفسية)[1] عززتها ودعمتها قابليته علي القتل، وأزمة حسين الزهار تتركز في خسارة اموالهِ في شركة الريان، ليصبح بعدها قعيدا علي كرسي متحرك . لذا الوطن كان مجرد حجة قديمة يصفي من خلالها من كان لهم سبب مباشر في ما وصل إليه من حال، وهذا الاضطراب تسلسل منطقي للوصول الى الذروة : –

الإحساس بالظلم ... لذا فان ذكريات الماضي تبقى حية، يشعر فيها الأب بان الحدث يعيد نفسه عليه مرارًا وتكرارًا . فضلاً عن عدم الراحة النفسية أو الجسدية عند تذكر أمور تخص الحدث .

بعد الظلم الإحساس بالكراهية .... أدت إلى اللامبالاة العاطفية، وانفصل عن العائلة والأصدقاء. واعتكف لينشغل لوحده بالظلم الذي يشعر به .

الرغبة الحقيقية في الانتقام ... الظلم والكراهية كانا يقودانه الى قابلية علي الانتقام مع قدرته علي الحذر الشديد . ومشاعر قلق لا يصرح بها بل يعكسها علي شكل نوبات غضب مفرطة . تعززها، أفكار سلبية عن الآخرين أو العالم[2] .

زمن التمتع السادي

التزام (حسين الزهار) بالسلطات الثلاث، هدفه الرئيسي الوصول إلى أهم مرحلة في طقسه؛ وهي (متعة اللذة السادية) التي كان يحصل عليها أثناء وبعد القتل، وهذه المحطة هي التي تمثل زمن إعلان النصر المنشود عنده، فينتعش ويتوازن وتأخذ مع كل قتيل شكلين ثابتين (قريب قصير، وبعيد طويل) : –

١– التمتع السادي القريب القصير ضمن حيز محسوساته :

يحرص في هذا الحيز على ممارسة طقس ثابت يؤديه كل مرة مع الفريسة بعد إعطائه تراب الماس مع الشاي او القهوة ليقول (انا حلمت انك سوف تموت بعد ثلاثة أشهر) تبدأ جرعة الانتقام مفعولها في جسده؛ فيبدو مبتسما، هادئاً مرحبا ومجاملا للفريسة، على غير عادته كمن يشرب جرعة مخدرات تعيد إليه توازنه؛ فيهدا ويسترخي .

٢– أما التمتع السادي البعيد الطويل ضمن حيز معقولاته :

لأنه يعلم أن الفريسة سوف تتعذب من الآم لا تطاق لمدة ثلاثة أشهر؛ فتعجبه اللعبة، ويعيش حالة من الارتياح خلال مدة عذاب من شرب تراب الماس. فيهدأ ويسترخي، من دون أن تعود عليه المسالة

(١) اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة النفسية النظريات والأعراض والعلاج: تيسير عبدالله، عائشة ابو عيشة مكتبة الشهيد خالد الحسن، ط١، ٢٠١٢ . نسخة الكترونية على موقع:
le-calligraphe.com

(٢) ينظر: اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة النفسية النظريات والأعراض والعلاج: ١٣، ١٧

بأية فائدة مادية؛ لأنه متأكد انه لم يعد هناك ما يأخذه من الدنيا؛ تعجبه اللعبة، خصوصا أنها تشعره بأهميته، وأنه يفعل شيئا ينتشله من الروتين والتهميش والعجز الذي يشعر بـــه [١] بجرعات القتل [٢] التي يتناولها؛ كتعبير عاطفي محموم ويائس يترجم حالة الانتقام والوصول إلى ذروته بالتمتع الهادئ .

هذه الشخصية المأزومة استوت وتوطدت على سمات جوهوية يحملها أي مجرم محترف: أنانيته التي بلا حدود ودافعه التدميري القوي [٣]، التي يعيد بها التوازن لمشاعره « فقد فيها قدرته على التسامح مع الناس حتى مع الذين يحبهم، تبرز فيه الحدة الانفعالية غير العادية، بموهبة تستعصي على الفهم والتحليل»[٤]، ويشحن نفسه من وقود ماضيه البطولي المقدس. بميول عدوانية مكتومة، يخضع لسلطة شهوته التي تسيطر عليه، يأخذ بيد ماضيه لحاضرهِ، راض بثباته علي رؤية محددة، ورؤية (حسين الزهار) لنفسه علي انه بطل، متمسك بإيجاد مبرر لما يفعل رسم لنفسه صورة ذلك البطل السلبي، الذي لا يسمع لأحد ولا يقبل بأحد، دائم الشكوى والاعتراض[٥] . فتشكلت هذه الشخصية المأزومة، والمعقدة رغم الثقافة العالية التي لم تعنه؛ إلا علي البحث عن شخصيات تاريخية سوداوية، يشتمها ويلعنها، فرحا بمصيرها المسحوق.

هذا مجمل ما يمكن ان نصف به شخصية الأب المأزوم حسين الزهار وما أدى تبلور أزمته بهذا التنظيم الدقيق من قبله، مع نمط معيشي مقيت؛ كمستلزمات لإتمام ما يقوم به من عمليات قتل منظمة يعيدها بنفس الطريقة والتفاصيل لأنها لا تلفت الانتباه، لهدوئها والمسافة الزمنية الطويلة بين تناول تراب الماس القاتل، والموت به .

المبحث الثاني

انتقال الأزمة إلى الابن طه :

إجمالي وصف (طه حسين الزهار) بأنه شاب، حياته باهتة، رتيبة، يعمل في صيدلية، صديقه (ياسر) الحميم، ومعجب بجارته (سارة)، اخذ عن أبيه ثقافة تاريخية، ويعرف كيف يتجنب عصبيته، ويلبي احتياجاته بإحضار ما يريد من الصحف والمجلات .

بعد قتل الأب يقرأ طه حسين الزهار مذكرات أبيه بدهشة وكأن «تلك المرة الأولى التي يشاهد أبـــاه...» [٦]؛ ويتوضح له سبب النمط الذي كان أبوه

(١) تراب الماس في ضوء التحليل النفسي، مي المغربي، مقال منشور على موقع /alarab.co.uk بتاريخ ٣١/ ٣/ ٢٠١٩.

(٢) ينظر: تراب الماس، الصفحات من ٨٨ – ٩٤، التي يقوم بها حسين الزهار بقتل الثري محروس برجاس باتباع طقسه الثابت قبل القتل بقوله انا حلمت بك انك حتموت بعد ثلاث اشهر .

(٣) ديستوفسكي وجريمة قتل الأب: مقال منشور على موقع www.facebook.com/DostoyevskyInArabic/post بتاريخ ٢٢/ ديسمبر / ٢٠١٩

(٤) سيكولوجية الانتقام: محمد إقبال محمود :، المجتمع العربي للنشر والتوزيع ،عمان، ط١، ٣٧

(٥) ينظر: صورة البطل في القصة القصيرة السعودية، عبير حامد محمد، رسالة ماجستير، جامعة ام القرى، كلية اللغة العربية المملكة العربية السعودية، ٢٠١٤، ص ٨٢، وينظر: البطل الإشكالي في الرواية العربية المعاصرة، عزام محمد ، الأهالي النشر والتوزيع، دمشق، ١٩٩٢، ص ١٢ .

(٦) تراب الماس: ١٦١

يعيش به، وجلوسه في الظلام أمام الشباك لمدة طويلة.

بعد مدة يرن الجرس تأتي أم طه، لترى ابنها الذي لم تره من سنين لأنها بعد الطلاق تزوجت وذهبت إلى الخليج، يتبين انزعاجه منها، ويكلمها بلهجة ساخرة، من خلال حوار طه مع امهِ؛ يتعرف على اختيارات أبيه لأنواع من البشر يختارهم كفريسة له، عندما وجه طه لامه عتابا لانفصالها عن أبيه ألقت مفاجأة بوجهه قائلة: «ما ينفعش أكمل مع واحد قاتل»[1]. ذكرته بصديقتها (سميحة)، المُطلقة التي تعرفت على رجل ثري يصرف عليها، وماتت بمرض صعب؛ لأن أباه قتلها بهادة غريبة وضعها في الشاي حين طلب مقابلتها على الرغم من كرهه لها، يومها كان هادئاً صامتاً، وبعد شربها الشاي، حكى لها عن حلمٍ رآه فيها؛ لتموت بعد أشهر . وطبعا هو وجد لنفسه مبرر لقتلها معللا ذلك لام طه « إن لها طفلاً لن يسعد بسماع سيرتها، فاليتم يصبح نعمة إذا قورن بعهر أم»[2].

يكتشف (طه) ان قاتل أبيه هو (السرفيس) رجل الشارع الأهوج ضخم الجثة، لأنه رآه يوزع المخدرات أثناء مراقبته للشارع ليلا، بالتعاون مع الضابط الفاسد (وليد سلطان)، فبدأ بمسايسته، وقرر التخلص منه [3]؛ من هذه النقطة يبدأ طه برحلة غريبة يدخل بها في أزمات عدة يتشابه دافع قتله الاول فقط مع ابيه، ويتفكك ويخرج عن السيطرة في سلسلة جرائم تفرض عليه .

إرادية القتل الأول :

كما تم ذكره يقوم طه بممارسة هذا الطقس على قاتل الأب، فيتشابه عنده هدف القتل الأول وهو (عاطفة الانتقام للأب)، مع هدف القتل الأول عند الأب وهو (عاطفة الانتقام للوطن) ويقع على الابن ما وقع على الأب من أثر الأنا العليا فيلبس طه قناع أبيه، مقلدا طقسه البطولي القديم، جامل الفريسة، عاملها بهدوء، جلس على كرسيه، واعتلى نظارته، وألقى الحكم عليه بالقتل بلا استئناف، ووضع له تراب الماس في الشاي. منهياً اللقاء برمي تعويذة أبيه السادية الهادئة قائلا (أنا حلمت بيك) [4].

ليس هذا فقط بل ان الراحة النفسية التي كان يشعر بها الاب بعد قتله الفريسة شعر بها طه « راقبه طه حتى توارى ... لا بد من احتفال كشف الحجاب عن الدرامز ... لاول مرة يقرع الطبول برجليه ... أغمض عينيه في نشوة ثم بدا بالرقع بإيقاع منتظم»[5]، راحة نفسية تشابه ما عند الأب الذي كان يبدو بعد القتل هادئا ويخرج إلى الشارع ليستنشق الهواء، ويسترجع ذكريات طفولته في حارة اليهود [6].

(١) نفسه: ١٦٤ .
(٢) ينظر: الصفحات التي تم بها قتل حسين الزهار لسميحة ١٦٤ – ١٦٥ .
(٣) ينظر: تراب الماس ٢٢٠.
(٤) نفسه : ٢٢١
(٥) نفسه : ٢٢٢
(٦) ينظر: نفسه، نص طويل للأب يتحدث عن ذكرياته لابنه أثناء تجواله معه في الشارع بعد زيارته للثري الفاسد محروس التي وضع له تراب الماس في قهوته تعكس مدى الراحة والهدوء التي بدا عليها الأب حسين الزهار، من ص ٩٥ – ١٠٣.

لكن لان طه شخصية عادية، مارس القتل كبيراً، وليس لديه أي ذكاء استثنائي، أو طاقة مرضية للانتقام ؛ برزت «فروقه الفردية في مستويات التفكير والتعبير»[١]، عما كانت عليه قدرة الأب من الكبت والسرية، والحنكة في التخطيط مع موت الضمير، جرته لاتخاذ قرارات صعبة، فُرضت عليه من الضابط الفاسد الذي اكتشف سر القتل بتراب الماس بعد إيجاده دفتر مذكرات الأب حسين الزهار .

نمو الأزمة

الانجرار العاطفي للابن بالانتقام لأبيه والنشوة التي شعر بها، لاعتقاده أن الأمور ستجرى كما كانت مع الأب؛ أتت له بما كان ليس بالحسبان، فادى ذلك إلى دخول طه في سلسلة أزمات؛ كبلته وأجبرته علي فعل أشياء فوق مستوى طاقته فيتحول إلى أداة يبيع فيها نفسه للشيطان مجبراً[٢]: –

- عدم القدرة علي كتمان السر:

ما كان يحتفظ به الأب لسنوات عديدة ويقتل به دون أن يلفت الانتباه في السلوك أو الكلام؛ انحل عند الابن بقيامه بالبوح بكل شيء لصديقة ياسر[٣]؛ لفرط حيرته والإرباك الذي حصل عنده . خاصة بعد أن كشف الشرطي سر القتل بتراب الماس بإيجاده دفتر مذكرات الأب، لذلك تم كسر أقوى قاعدة كان يرتكز عليها الأب وهي الكتمان؛ وكان هو الذي يتحكم بقيادة الأمور من علي كرسيه المتحرك؛ ولا احد يفرض عليه قرار إلا ذاته، بينما الابن فقد السيطرة تماما علي ذاته، وأصبح عرضة للابتزاز ويوجه من قبل الضابط كما يشاء.

وبدأ يستغله ليصفي حساباته بالنيابة عنه بسلسلة من الجرائم، فيتلقى أمراً بالتعجيل في قتل السرفيس (الذي يعلم بكل تفاصيل فساده) عندما بدأ يعاني من الآم مبرحة بحجة انه – ميت في كل الأحوال –، يقوم طه بضربه بالصاعق الكهربائي ثم يقطع جسده بالمنشار الكهربائي، ويذيبه في مادة حامضية في بانيو الحمام بمساعدة صديقة ياسر، في مشهد بشع جدا. بطريقة لافتة للانتباه وكأنه محترف في القتل من سنوات طويلة ساعده في ذلك خبرته في الصيدلة والمواد الكيماوية المذيبة للجسم .

- اختيار أساليب مختلفة للقتل:

التزام الأب بطريقة واحدة للقتل وبتنظيم ثابت ودقيق، تعددت أنواعه وطرقه عند الابن لأن الضابط هو الذي بدأ يخطط له ماذا يفعل، ولم يعد قادرا علي الرفض لان دليل قتله للسرفيس لدى الضابط، فيدفعه مرة أخرى لقتل الثري الشاذ (هاني محروس برجاس)[٤]. ليتخلص الضابط بدورهِ من هذا الشخص الذي

(١) دراسات في نقد الرواية: طه وادي، الهيأة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٩ . ص ٤٣ .

(٢) العبارة مقتبسة عن حكايات (فاوست) الشخصية الألمانية الأسطورية، لكن بصورة معاكسة لفاوست الذي يبيع نفسه للشيطان ل (٢٤) سنة مقابل متع الحياة، ومطابقة لتنفيذ طلبات الشيطان ينظر: فاوست: جيته، ترجمة عبد الرحمن بدوي، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، ط٢، ٢٠٠٨، المقدمة .

(٣) ينظر: تراب الماس: ص ٢٥٩ .

(٤) ينظر: صفحات قتل السرفيس بتراب الماس من ص

كان يتلسط عليه لنفوذه وقدرته علي إيذائه .

يبدأ طه بالنمو نحو الانهيار [١]، ويفقد أشياء كثيرة، وتتطور أزمته ويقف في مستويات الضياع وأهمها : –

١ – مستوى العار: في هذه المرحلة من الوعي دخل طه في دوامة من العجز الكلّي: العجز على السيطرة على حياته و تقرير مصيره أو العجز عن اختيار نمط الحياة الذي يتناسب معه [٢]؛ مما أدى إلى فقدانه الاتزان: لجأ طه إلى المخدرات حتى يستعيد توازنه دون جدوى فيفقد عمله وشكله الذي بدا نحيفاً ووسخا ورث الثياب[٣].

٢ – مستوى الذنب: سيطر عليه إحساس بالندم المفرط و الذنب المبالغ فيه[٤]؛ فأصيب بالهلوسة ويلجا لحبوب (الادرينالين) لوقفها دون جدوى، وبدأت أشباح من قتلهم يلوحون أمامه « شهيقه الحار بلا زفير، فارقه النوم، ...الطعام يأبى معدته ... الجدران حوله ترمقه، تراقبه .. كل الأصوات التي حوله تنادي باسمه ... أقراص الهلوسة تزيده هلوسة »[٥] .

٣ – الاغتراب: وبعد انتهاء المهمات التي نفذها يقرر الضابط الفاسد أن يتخلص منه بتهريبه خارج مصر . فتُقفل عليه الدنيا. فيدخل في ثلاثية مغلقة وهي حاجته إلى الآخرين الذين فقدهم جميعا إلا الضابط الذي كان يفرض نفسه عليه؛ فسببت له الشقاء والانكسار، والحاجة إلى معاداة الآخرين، وهذه أيضاً مفروضة عليه بحجة أنه يجب أن يبقى علي قيد الحياة، والحاجة إلى الابتعاد عن الآخرين؛ ليحمي نفسه، وفي كل نوع من هذه الأنواع عنصرا من العناصر الرئيسية للقلق الأساسي سيطر على تركيبه، وهو الضعف الذي لم يُبق له من حل؛ إلا الانسحاب والعزلة عن طريق الاغتراب . فوصل عندها إلى حافة الضياع نحو المجهول [٦].

مستوى الشجاعة

أثناء استعداد طه للرحيل من مصر على ظهر مركب وكان في أعلى مرحلة من مستوى (عوائق النمو الروحي)؛ يقف على شباك بيته غراب اسود في إشارة رمزية بالانفراج [٧]؛ يكتشف بالصدفة أن

---

٢١٨ الى ٢٢١، الحدث اخذ سردا طويلا بشرح تفصيلي ودقيق لعملية تقطيع الجسم وتذويبه في بانيو الحمام بمادة حامضية. اما مشهد قتل هاني برجاس من ص ٣٣٠ – ٣٣٣ .

(١) ينظر: فن القصة: محمد يوسف نجم، دار الثقافة – بيروت، ط ١٠، ص ١٠٤

(٢) مقال: ١٧مستوى للوعي مثبت عند هاوكينز: مقال منشور علي موقع

https//:karmagazine.net

بتاريخ ٨ يوليو ٢٠١٩ .

(٣) ينظر: تراب الماس، الصفحات ٣٢٨ وما بعدها .

(٤) مقال: ١٧ مستوى للوعي مثبت عند هاوكينز

(٥) تراب الماس: ٣٣٦ .

(٦) ينظر: علم النفس في القرن العشرين: بدر الدين عامود، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١، ص ٦٥.

(٧) في الرواية مشهد مشابه تماما للحال الواقعي الذي وصل اليه للشاعر الامريكي ادجار الن بو، ووصوله للضياع. التي وثقها في قصيدته (الغراب -the rav an)، سنجد تفاصيل كثيرة عن وصول الغراب الى بيت الشاعر كمنقذ له من اليأس والسكر والسوداوية التي بات يعيش فيها خاصة بعد فقده حبيبته (لينور)،

الضابط كان يتلاعب به .

فيحدث عنده ما يسمى (بالوعي الفجائي)، بدء يعيد توازنه، لينهض من سكرات الضياع، ويثبت انه الأقوى؛ فك عن نفسه الحصار، ليتحرر من شبح يأسه وتشاؤمه ويكسر قوانين الأب، التي كبلته برغبة مريضة لا تشبع إلا بجرعة موت للانتقام؛ فبقي حبيساً لها ولم يقو أو يحاول المقاومة، نسى العالم واتخذ بيته وكرسيه المتحرك دنيا له، يبحث منها عن القتل الأخير حتى مات مقتولا، أما طه فوجد القتل الأخير، بالخلاص من الفاسد (الضابط وليد سلطان) بقتله بتراب الماس؛ ليبيع كل ماضيه ويتخلص من المادة برميها في النيل؛ فتقفز روحه بعيداً؛ ويتحرر من أسر الضياع، والمشاعر المريضة، وينقل نفسه من العالم المغلق(بيته وعمله) إلى المفتوح (البحر)، ليعمل في شرم الشيخ قارعاً للطبول في مقهى ليلي [١] .

لذا بعد كل المستويات التي مر بها طه من أحاسيس بالعار، والخوف، والضياع والاكتئاب؛ يصل إلى الصحوة الروحية التي حررته من أزمته وتمكن من التغلب عليها، ليقف في مستوى الشجاعة .

وتنتهي الأحداث بأخر تمريرة بدعوة للتمرد على الممارسات السلوكية المريضة التي تتحكم في الإنسان، لينهي الصراع بين اليأس والأمل. بمشهد (لطه مع حبيبته سارة) وقد «ضم أناملها بكفه ورجعا للمرقص لينصهرا بين الناس»[٢]، مشيراً إلى قدرة الإنسان للعودة إلى الحياة في نهاية مفتوحة .

الخاتمة

- توقد الحدث الذي تعرض له الأب (حسين الزهار) في عقله بشكل دائم هو الذي كان يجدد الرغبة في الانتقام فبقيت أزمته مرافقة له، ولم يستطع التحرر منها
- (الأب حسين الزهار) كان يقتل كل من كان لهم سبب مباشر، أو غير مباشر في مرضه، وخسارة أمواله، ولكنه كان يتخذ من هدف تحقيق العدل والقضاء على الفساد؛ ذريعة للانتقام والدليل إن لجام سخطه ظهر وهو قعيد؛ لذا فالرغبة بالانتقام لنفسه لا لتخليص الوطن من الفسدة . أما الابن فكان القتل الأول لأبيه، والأخير لنفسه، وما بينهما ليحل أزمات غيره .
- الأب كان يرسم لنفسه صورة البطل الأسطوري الذي يستمد قدرته علي تحقيق العدالة من كتب التاريخ، ويتحكم بقيادتها من ذاته المريضة فتشبعه وتعيد توازنه . أما الابن دخل بأزمته ليعيد توازن غيره .
- وقوع الأب في صراع الأنا والآخر كان صراعا

شابهها وصول غراب طه الزهار شباك بيته . كلاهما تأمل جمال سواد لون الغراب، مداعبتهما له بلطف، حديثهما معه، الامل الذي منحهما، وصوله ورحيله من شباكي بيتهما . ينظر: ادجار الن بو وقصيدة الغراب: زهير سالم على موقع www.asharqalarabi.org.uk، ورواية تراب الماس في الصفحة٣٥١.

(١) تراب الماس: الصفحة الأخيرة ٣٨٩.

(٢) نفسه: ٣٨٩ .

صامتا، من مكان مغلق أما صراع الابن فقد كان معلنا، وفي عوالم مفتوحة .

• نمو الأزمة والتدرب على القتل في شخصية الأب صغيراً، جعلته قادرا على التحكم في زمام قيادة الأمور من حيث الحنكة، والسرية، وتقنيات التنفيذ . تدعمها أنانيته المفرطة، وموت إحساسه بالذنب . التي تقع تحت ما يسمى بأزمات ما بعد الصدمة، أما الابن فيمكن القول بأنه أزماته كلها كانت ما بعد الرغبة بالتقليد والاندفاع اللاعقلاني .

• دفتر مذكرات الأب في داخل الرواية، والذي يمكن ان يطلق عليه (أدب الاعتراف) كان هو الدليل على المقولة الشهيرة لا يوجد جريمة كاملة . أما جرائم الابن التي فرضت عليه تركت من دون ان يتبين مصير عقابها؛ ووضعت نهاية مفتوحة تترك للقارئ البحث عن عقوبة لطه .

• تمرير الرسائل الرافضة لفكرة الانتقام بصوت العقل على لسان الشخصيات الثانوية مثل – أم طه –، والعمة فايقة، والابن طه .

• اعتمدت اغلب حلول أزمات طه على (المصادفات) وهي تعتبر أسهل حيل كتابة الروايات البوليسية .

• أحداث الرواية كلها تتطابق مع تفاصيل شخصية الأب، وسلوكه، لكنها تتناقض عند طه في ارتكابه جرائم قتل عنيفة؛ وكأنه محترف لا تتناسب تفاصيلها البشعة مع شخص يمارس القتل لأول مرة .

• ختاما .. على الرغم من حنكة ودهاء الأب، يمكن ان يقال فيه انه جبان وضعيف أمام رغبته التي تحكمت فيه وبقي حبيسا لها ؛ لأنه كان ثابتا في مستوى (الكراهية)، وعلى الرغم من قلة وخبرة حيلة الابن؛ تبين انه الأشجع لقدرته على كسر طوق اليأس . فاستطاع أن ينقل نفسه من مستوى العار والخوف والاكتئاب إلى مستوى (الشجاعة) .

المصادر والمراجع

• الأنا والهو: سيغموند فرويد، ترجمة: محمد عثماني نجاتي، دار الشروق، بيروت: ١٩٨٢ .

• البطل الإشكالي في الرواية العربية المعاصرة، عزام محمد ، الأهالي النشر والتوزيع، دمشق، ١٩٩٢ .

• تراب الماس: احمد مراد، دار الشروق، القاهرة، ط٢، ٢٠١٢ .

• دراسات في نقد الرواية: طه وادي، الهيأة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٩

• الزمن في الرواية العربية: مها حسن القصراوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الأردن، ط١، ٢٠٠٤ .

• سيكولوجية الانتقام: محمد إقبال محمود :، المجتمع العربي للنشر والتوزيع ،عمان، ط١ .

• صورة البطل في القصة القصيرة السعودية، عبير حامد محمد، رسالة ماجستير، جامعة ام القرى ،كلية اللغة العربية المملكة العربية السعودية، ٢٠١٤ .

• علم النفس في القرن العشرين: بدر الدين عامود، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١.

• فاوست: جيته، ترجمة عبد الرحمن بدوي،

المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، ط٢، ٢٠٠٨ .

- فن القصة: محمد يوسف نجم، دار الثقافة – بيروت .
- وراء السراب – قليلا : إبراهيم درغوثى، دار الإتحاف للنشر، تونس ٢٠٠٢ .

مصادر من الانترنيت

- أدجار ألن بو وقصيدة الغراب: زهير سالم منشور بتاريخ ٢٩/ ٨/ ٢٠١٢ على موقع
http://www.asharqalarabi.org.uk
- اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة النفسية النظريات والأعراض والعلاج: تيسير عبدالله، عائشة ابو عيشة مكتبة الشهيد خالد الحسن، ط١، ٢٠١٢ . نسخة الكترونية على موقع:
le-calligraphe.com
- تراب الماس في ضوء التحليل النفسي، مي المغربي، مقال منشور بتاريخ ٣١/ ٣/ ٢٠١٩ . على موقع
/alarab.co.uk .
- ديستوفسكي وجريمة قتل الأب: مقال منشور على موقع بتاريخ ٢٢/ ديسمبر / ٢٠١٩
www.facebook.com/DostoyevskyInArabic/post
- ١٧ مستوى للوعي مثبت عند هاوكينز: مقال منشور بتاريخ ٨ يوليو ٢٠١٩ على موقع
https://karmagazine.net